كتب التراجم والطبقات

للدكتور محمد خلف الله أحمد

عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية

للتراث العربى فى ميدان التأليف مزيتان هامتان : الأولى أن تاريخ حياته يتصل اتصالا لا انقطاع فيه مدة ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، وهو باذن الله مستمر فى هذا الاتصال ما بقيت اللغة العربية وما بقى الإسلام ، وهذه صفة لاتتحقق فى كثير من الحضارات الراقية المعاصرة . والمزية الثانية ضخامة مكتبة هذا التراث وغناها وتنوع انتاجها وأصالته فى ضروب المعرفة المختلفة . والحقيقة أننا فيما نحاول من التعريف بنماذج هذا التراث الفكرى وآثاره فى خدمة الحضاره ، وفيما نقصد إليه من تنبيه الشباب العربى والإسلامى إلى أمجاده الخالدة ، نجد أنفسنا أمام ثروة يضيق عنها الحصر ويصعب فيها الاختيار . فآثرنا — نظراً لتنوعها وخصبها ووفرتها — أن نعرضها جملة لا تفصيلا ، وأن نرسم منها للقارىء العربى مجرد اطار عام يستطيع إذا شاء أن يكمل صورته من قراءاته ودراساته .

واليوم نجد أنفسنا فيما يقرب من هذا الموقف حين نتحدث عن المكتبة العربية فى ميدان التراجم والطبقات : فهى مكتبة حافلة تبدأ سلسلتها منذ أواخر القرن الثانى الهجرى أو أوائل القرن الثالث ، وتستمر فى مشرق الإسلام ومغربه ، وفى مراحل تاريخه المتعاقبة ، حتى أيامنا هذه . وهى مكتبة منوعة يتخصص بعضها فى تصنيف طائفة معينة كالشعراء والأدباء ،أو اللغويين والنحاة ،أو المتصوفة والفقهاء أوغيرهم ويأخذ بعضها شكل دوائر المعارف التى تترجم لكل هؤلاء الأصناف أو لكثير منهم فى عصر واحد أو عصور متعاقبة . وهذه المكتبة الخصبة تؤلف جزءا هاما من الذخيرة التى يعتمد عليها دارسو الثقافة العربية والإسلامية اليوم ، ويتسابق فى نشرها وتحقيقها جهابذة من شرقيين ومستشرقين . ومما يرتفع له رأس كل مصرى عزة وارتياحا أن مصر الحديثة تضطلع فى أحياء هذا التراث بدور كبير ، وشقيقاتها

العربية قد أخذن بمقاليد هذه الحركة بعد أن كانت إلى عهد قريب حكرا فى أيدى الباحثين الغربيين .

على أن مما يحتاج إلى التصحيح فى تفكيرنا الحاضر موقف بعض مثقفينا من هذا التراث العربى والاسلامى ، فإن من هؤلاء من لم يتصلوا به اتصالا حقيقيا ، ومن لم تهيء لهم ظروف تخصصهم العلمى الحديث أن يدرسوا تاريخ العلم الإنسانى وأن يضعوا الجهود العربية فى مكانها من سلسلة هذا التاريخ .

وبعد فإن من أقدم كتب الطبقات والتراجم فى ميدان الأدب العربى كتابين ألفا فى القرن الثالث الهجرى ، وعنى بهما الدارسون المصريون عناية مشكورة : أحدهما كتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام ، وهو كتاب وضع أساس البحث التاريخى والنقدى للشعر العربى وصنف شعراء الجاهلية وصدر الإسلام فى طبقات ، تحتوى كل منها أربعة يتقاربون فى المكانة الفنية ، أو تجمعهم بيئة واحدة من البيئات العربية ، أو يشتهرون بفن واحد من فنون الشعر . وقد جمع هذا الكتاب طائفة من المعلومات الأدبية الهامة وحفظ لنا صورة من بدء تطور الذوق النقدى فى المجتمعات العربية الإسلامية ، ومن المقاييس التى كان يستعملها الناقدون إذ ذاك فى الحكم على الأدب ، وفى المفاضلة بين شاعر وآخر .

والكتاب الثانى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة وهو يبدأ بمقدمة نقدية طريفة ، يناقش فيها قضيتى التكلف والطبع ، والقديم والجديد ، ويحاول أن يضع لجودة الشعر معايير تقاس بها ، ويترجم لأكثر من مائتين من شعراء الجاهلية وصدر الاسلام .

وإذ تتطور النهضة التأليفية ، ويتسع العمران الإسلامى ، وتطلع كل بيئة من بيئاته أعلاما من الشعراء والكتاب ، يتجه بعض مؤلفى التراجم إلى العناية بأدباء عصرهم فى الأقاليم المختلفة مفردين لكل إقليم أو مجموعة متجاورة من الأقاليم قسما من أقسام كتبهم . ويعتبر أبو منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ ، واضع أساس هذا الاتجاه فى كتابه « يتيمة الدهر فى محاسن أشعار أهل العصر » ، المعاصرين له فى أصقاع الإسلام المختلفة ، إذ كانت فى نظره أجود مما سبقها من أشعار الماضين فى الجاهلية والإسلام فعنده أن اشعار الاسلاميين جاءت أرق من اشعار الجاهليين ، وان اشعار المحدثين كانت الطف من اشعار المتقدمين ، وان اشعار العصريين كانت اجمع لنوادر

من أشعار سائر المذكورين ، لانتهائها إلى ابعد غايات الحسن وبلوغها اقصى نهايات الجودة والظرف . وإذا كان المؤلفون من قبله قد سبقوا إلى ترتيب المتقدمين من الشعراء والمتأخرين ، وذكر طبقاتهم ودرجاتهم ، وتدوين كلماتهم ، والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم ، قد بقيت محاسن اهل العصر — التى معها لذة الجدة وحلاوة قرب العهد — غير محصورة فى كتاب يضم نشرها ويقيد شواردها ، وهذه هى المهمة التى اضطلع بها فى كتاب « اليتيمة » فصنف شعراء العربية فى عصره فى اربعة اقسام خصص الأول منها لشعراء آل حمدان والشام ومصر والمغرب ، وخصص الثانى لشعراء العراق والدولة الديلمية ، والثالث لأهل فارس وجرجان وطبرستان واصفهان والرابع لأهل خراسان وما جاورها من الأقاليم .

ثم تتابعت بعد ذلك الكتب على غرار كتاب « اليتيمة » فلم يكد يخلو قرن من قرون الاسلام من واحد منها يترجم لأعيان عصره فى الأدب . ومن هذه الكتب كتاب ضخم فى عشر مجلدات كبيرة ، ظل إلى عهد قريب مخطوطاً لا يفيد منه إلى القلة المنقبة من الباحثين ، حتى تنبهت مصر وشقيقاتها العربية فى السنوات الأخيرة إلى ضرورة العناية بتحقيقه ونشره ، ذلك هو كتاب « جريدة القصر وجريدة العصر » من تاليف العماد الأصفهانى الذى عاش فى القرن السادس الهجرى ، والذى اتصل بالأيوبيين وبالقاضى الفاضل امام الصناعة الأدبية فى أيامه . وقد نشرت مصر القسم الخاص بها فى مجلدين ، واخرجت دمشق المجلد الأول من القسم الخاص بسوريا ، ويقوم المجمع العلمى العراقى على نشر القسم الخاص بالعراق . ويبدو ان المؤلف كان معجباً بمصر وادبائها وعلمائها إعجاباً كبيراً . وان سوق الأدب فى المدن المصرية المختلفة فى ايامه كانت رائجة ، ان شخصية مصر الأدبية إذ ذاك كانت قد وصلت أعلى درجة ظاهرة من النمو والوضوح ، يقول المؤلف فى مستهل القسم الرابع من كتابه : « وانا مبتدىء بالديار المصرية لامتزاجى باهلها ، وابتهاجى بفضلها ومقامى فيها . . ومصر مربع الفضلاء ، ومرتع النبلاء ، ومطلع البدور وموضع الصدور ، واهلها اذكياء يبعد من اقوالهم واعمالهم العى والعياء . »

ومما له دلالته ومغزاه ان هذه التحية الجميلة التى يوجهها المؤلف الأصفهانى لمصر فى القرن السادس الهجرى ، تتردد فى كثير من امهات الكتب العربية التى الفها علماء من المشرق والمغرب الاسلاميين وقد مات بنا صورة هذه الأحاديث التى نقلناها عن مشيء علم العمران وفلسفة التاريخ عبد الرحمن بن خلدون . وها نحن اولاء فى نهضتنا

الحديثة نسمعها صادقة مخلصة من زعماء الأمم الشقيقة ومفكريها ، فتشتد بها عزائمنا وتزداد ارادتنا قوة على قوة ونحس أن علينا للعروبة والإسلام تبعات لابد لنا أن ننهض بها ، وأن لوطننا تراثا عريقا من حقه علينا أن نحييه ونحافظ عليه .

هذه الأمثلة التى ذكرناها تمثل ثلاثة أنواع من كتب الأدب : أحدها تصنيف الشعراء القدامى إلى طبقات ، والثانى التعريف بالشعراء والترجمة لهم دون تصنيف والثالث أفراد كل بيئة من البيئات الكبرى المعاصرة للمؤلف بقسم من أقسام الكتاب وتصنيف الآن إليها نوعين آخرين : أحدهما يمثل عناية المؤلف ببيئته ومن فيها من أعلام الأدباء ، والثانى يصور الاتجاه الموسوعى أو المعجمى فى التعريف بالسابقين من الأدباء والعلماء إلى عصر المؤلف . أما الأول فيتمثل فى كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام الأندلسى الذى عاش فى القرن السادس الهجرى ، والذى دفعه إلى تأليف كتابه هذا حرصه على أن ينشر مفاخر وطنه « الأندلس » ويسجل رقيه فى الأدب والعلم ، ويثبت ان فى مؤلفى الغرب الإسلامى من يستطيعون الجرى مع مؤلف اليتيمة فى مضمار واحد ، وقد كان لمصر أيضاً فضل السبق إلى العناية بتحقيق هذا الكتاب ونشره ، وهو الآن يسير رويداً إلى التمام . وأما الثانى فيتمثل فى كتاب « معجم الأدباء » لياقوت الحموى الذى عاش فى القرنين السادس والسابع ، وقد سبقنا الغرب إلى نشر هذا الكتاب ثم اعادت مصر نشره فى عشرين مجلداً فسدت به ركناً مهما فى المكتبة العربية ، ووضعت امام الباحثين المحدثين سجلا شاملا لأخبار المشهورين من اللغويين والنحويين والنسابين والفقهاء ، والأخباريين والكتاب وأصحاب الرسائل ومصنفى الأدب ، ممثلين لمراكز الثقافة العربية من البصرة وبغداد إلى الحجاز ومصر والمغرب وغيرها . وقد حوى هذا الكتاب ترجمة الف او يزيد من هؤلاء الأعلام واشار إلى مايربو على خمسة آلاف من الكتب والرسائل ، ومما يذكر فى معرض الانصاف للحضارة الإسلامية ولما اتسمت به من ساحة وحرية ، ولما هيأته من فرص التثقيف لكل من أظلته رايتها ان مؤلف هذه الموسوعة الضخمه كان فى نشأته فتى روميا اسر فى بلاده صغيراً ، وابتاعه ببغداد رجل تاجر وجعله فى الكتاب لينتفع به فى ضبط تجارته . فلما شب الفتى وترعرع ، وقرأ شيئاً من اللغة والأدب اعتقه الرجل ، فاستمر فى تثقيف نفسه ، واشتغل بتجارة الكتب وتنقل فى عواصم الاسلام من دمشق وحلب إلى الموصل ومرو وخوارزم ، وساعده هذا التجوال فى البلاد ، والمخالطة للناس ، على

جمع ما استطاع من الأخبار والمعارف بالرواية والمشافهة والاطلاع على مختلف المصنفات والكتب . وقد سجل فى بعض رسائله وصفاً مفصلا لطبيعة بعض البلاد التى جابها ولما تقلب عليه من الشئون والأحوال ، كمثل قوله عن نفسه وعن نهمه للمعرفة أثناء مقامه بمرو ومن أعمال خراسان ، هكذا كانت روح الحرص على العلم فى الحضارة الاسلامية ، أيام كانت ممتدة الأطراف واسعة الأرجاء ، وهكذا كانت فرص طالب المعرفة ، أينما سار وجد كتبا وعلماء ، ولقى أهلا بأهل وجيرانا بجيران .